

الأسلوب القصصى وأثره فى النشر العربى

للمركتور الأصمحر ضيف

يعتبر الأسلوب القصصى من أعظم أنواع النشر فى الكتابة الأدبية عند جميع الأمم ، ولكن أدباء الغرب لم يعنوا بتدوين هذا الأسلوب إلا فى العصر العباسى ، إذ لم يكن للقصص أثر يذكر فى عصور اللغة العربية قبل ذلك ، ولا تحسب قصص الزباء وسطيح ، وحروب العرب وأخبار الجن ، وما هو مدون من سيرهم وأحوالهم وأخبارهم ، وما كان يجرى فى المجالس والمحافل هناك — من هذا النوع ، لأن هذه قصص تاريخية لا أدبية فنية ، وليست مكتوبة بأسلوب أدبى رصين ، ولا بقلم كاتب واحد ، بل رواها الرواة وغيروا وبدلوا فيها ، كما يروى المؤرخ حادثة ثم يرويها مؤرخ آخر بطريقة أخرى ، فلا يعد هذا من الأساليب الأدبية ، على أن الأسلوب القصصى ظهر فى الأدب العربى وبلاغته ، منذ ظهر أول كتاب فى لغة العرب ، وهذا الكتاب هو القرآن الكريم ، فقد جاء القرآن بكثير من القصص التى تحسب من نماذج الكتابة البليغة ، وأساليبها الفنية البديعة ، المحتوية على كثير من الأحوال التاريخية والاجتماعية : كقصص فرعون وموسى وإبراهيم ويوسف وعيسى ومريم وأهل الكهف وسليمان والنمل وغيرها ، ولكن لم ينسج على منوالها أحد من الكتاب ، لأن الأدباء ونقاد الأدب لم يرشدوا الكتاب إلى هذا النوع من الكتابة الفنية .

القصص والأحداث :

وقد احتوت كتب الأدب العربي على كثير من القصص ، كأيام العرب وحروبهم وذكر ملوكهم وشعرائهم وعشاقهم ، ولكن كل هذا من باب الأحاديث أو المسامرات ، لا من باب الكتابة الأدبية الفنية التي تتميز بأسلوب الكاتب ، وتعرف بصبغته الشخصية ، وشعوره الخاص به في الكتابة ؛ لأن حوادث التاريخ لا تتغير ، وطبيعة الإنسان واحدة ، فالحب والبغض والطمع والقناعة والإحساس والأساءة والتقوى والضلال ، كلها حالات ثابتة في النفوس وفي طبيعة الإنسان ، لا تختلف في أصلها ؛ ولكن الذي يتغير ويختلف هو إدراك الشخص لها ، وفهمها فهما صحيحا أو خطأ ، وتصوير ذلك على حسب ما يرى ويفهم فهذه الشخصية هي التي تظهر في الكتابة القصصية وتميزها عن غيرها ، وهي التي تقلب التاريخ إلى أسطورة أو إلى بحث نفسي أو اجتماعي ، وقوة الكاتب وبراعته هي التي تلبس الحوادث والحكايات لباسا قد يجعلها خالصة باقية ببقاء الأيام .

هذه الصفات التي ذكرناها شرط من شروط كتابة القصة الفنية الأدبية ، وهذا النوع من القصص المبنية على التفكير العميق ، والنظام العقلي الخاص والأسلوب الفني الكتابي المحتوى على ذكر أشخاص متصفين بأخلاق خاصة وصفات خاصة . يتحدثون ويتناقشون ، فتظهر في أثناء أحاديثهم ومناقشاتهم خفايا النفوس البشرية ، وما تنطوى عليه العقول من ميول وأهواء وعقائد — هذه الصفات لم تظهر ظهورا جليا في النثر العربي إذ ليست هي ذلك النوع من الأحاديث التي نشرت في كتاب الأغاني وغيره من أخبار الخاصة والعامة ، ولا تلك الأخبار التاريخية أو الجغرافية وغيرها .

القصص العربية :

وقد ظهر في القرنين الثالث والرابع وما بعدهما — أحاديث أو حكايات

تدخل فى باب القصص ، من حيث أنها أخبار منمقة مكتوبة كتابة أدبية ولكن كثيرا منها ليس مبنيا على خيال الكاتب نفسه، بل هى سرد أو وصف لشيء رآه، مثل ما يحكى عن أهل بغداد ومجالس الرشيد والبرامكة . وجزء عظيم من هذه القصص منقول عن اللغات الفارسية وغيرها، أو محاكاة لها ، أو مؤلف تأليفاً هو أقرب إلى التاريخ منه إلى القصص، وبعضها كتب بلغة ملحونة فاسدة لا تحسب من نماذج الأدب الصحيح، مثل القصص العربية المعروفة التى كتب أكثرها بلهجة عامية مصرية، كقصة عنتر وسيف بن ذى يزن وغيرهما. أما مثل رسالة الغفران لأبى العلاء والتوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى وحى بن يقظان - فهى من الكتابة العلمية أو الفنية الخاصة بالنقد الأدبى أو الفلسفى .

وهناك نوع من القصص، هى من القصص التى أخذ الكتاب فى معالجتها وأخذوا موضوعاتها من التاريخ العام، أو من بعض البلدان التى عاشوا فيها، أو من قصص القرآن، أو من ألف ليلة وليلة ، أو من تاريخ العرب خاصة ، مثل حكاية أبى القاسم أحمد البغدادى، وحكاية الحداد وما جرى له مع هارون الرشيد، وقصة أنيس الجليس وما جرى لها مع على نور الدين وهى مأخوذة من ألف ليلة وليلة، وحديث علاء الدين والقنديل المسحور، والحكايات المنسوبة إلى أبى الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد البكرى ، المتوفى فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، كغزوة الأحزاب وما جرى للإمام على الفارس الوثاب . وغزوة الإمام على بن أبى طالب مع اللعين الهضام بن الجحاف ، وفتوح اليمن المعروفة بقصة القول ، وغير ذلك من القصص الكثيرة التى كتبت فى أزمان مختلفة .

قصة عنتره :

ومن أشهر القصص التى كتبت عن أبطال العرب قصة عنتره، وينسبون

روايتها إلى الأصمى في أواخر القرن الثاني الهجري ، وهو أقرب إلى وصف الحياة البدوية منها إلى غيرها، وهي مكتوبة بأسلوب ملحون. ولكنها احتوت على كثير من أخبار العرب وأشعارهم وأوصاف حروبهم وعاداتهم وأخلاقهم من كرم وشهامة وشجاعة وميل إلى الانتقام، كما احتوت على حبهم للشعر وفنونه وجملة أحوالهم الاجتماعية والتاريخية قبل الإسلام.

وهذا يدل على أن الذوق في القصص العربية كانت بذرة قد بدأت تنمو في نفوس الكتاب، ولو أن هذه القصص وأمثالها كتبت باللغة الفصحى، لكانت من أعظم فنون الأدب في النثر العربي، ولكنها بأسلوبها هذا لا تحسب من اللغة الصحيحة، بالرغم مما بها من الأشعار والأخبار والأمثال، ويقولون إن هذه القصة كتبت في مصر، ويروون في ذلك « أنه نشأ في مصر من أفاضل الرواة رجل يقال له الشيخ يوسف بن إسماعيل ، وكان يتصل بباب العزيز بالقاهرة فاتفق أن حدثت ربة في دار العزيز ، ولهج الناس بها في المنازل والأسواق فسأه العزيز ذلك ، وأشار على الشيخ يوسف بن إسماعيل المتقدم أن يطرق ما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث ، وكان واسع الرواية في أخبار العرب، كثير النوادر والأحاديث ، فأخذ يكتب قصة عنتره ويوزعها على الناس فأعجبوا بها واشتغلوا بها عما سواها، ومن تلطفه في الحيلة أنه قسمها إلى اثنين وسبعين كتاباً، والتزم في آخر كل كتاب منها، أن يقطع الكلام عند معظم الأمر الذي يشتمل القارئ والسامع إلى الوقوف على تمامه ، فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه، فإذا وقفت عليه انتهى به إلى مثل ما انتهى في الأول وهكذا... إلى نهاية القصة ، وقد أثبت في هذه الكتب بعض ما ورد في أشعار العرب المذكورين فيها... وأضاف إلى تلك الأشعار أشعاراً أخرى يبعد أن تكون صادرة عنهم، كما أضاف إليها قصصاً وأحاديث وحكايات مخترعة، قصد بها التسلية والتشيل . فعلى هذه الرواية التي وجدت في مقدمة ديوان عنتره تكون

هذه القصة كتبت فى مصر ، كما قالوا عن غيرها من القصص الأخرى التى تظهر فيها المسحة المصرية والصبغة العقلية لأهل مصر من فكاهات وغيرها .

ولكن كان لظهور بعض القصص التى نقلت عن الهندية والفارسية فى قنا — أثر عظيم ، فقد نشرت فى الأدب العربى بأساليب مختلفة ، وفى موضوعات مختلفة ، بعضها أعجمى وبعضها عربى ، وسبب انتشار هذه القصص — ولا سيما الأعجمية منها — أن أندس بين العرب أيام الدولة العباسية كثير من الأجانب الدخلاء ، وكان أكثر هؤلاء من العامة الذين يميلون إلى الأخبار الخرافية والأخيلة الغربية ، وكان التجار الذين يترددون على الهند وفارس وبلاد العرب يحملون شيئاً من هذه القصص والأخبار ، وينشدهونها فى المجالس بين العامة والخاصة ، وهذا أصل الميل إلى نقل تلك الحكايات الفارسية أو الهندية إلى العربية ، ثم زاد الناس على هذه القصص وأضافوا إليها شيئاً من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية ، وهكذا أخذ هذا الأسلوب القصصى ينتشر بين العامة حتى امتلأ باللهجة العامية ، واشتغل به بعض الأدباء ، وجرى على ألسنتهم ، فأدخلوا فيه شيئاً من الأشعار والعبارات الصحيحة والأساليب البليغة ، وظهرت فيه حكايات هى خليط من الهندية والفارسية والحياة الإسلامية ، ولهجات العامة والخاصة ، والحوادث المختلفة للخلفاء والأمراء والعلماء والجهلاء والرجال والنساء والكبار والصغار .

والمأمل فيما كتب من القصص فى لغة العرب ، يرى أنها مأخوذة من أصول مختلفة ، وأنها تختلف من حيث التكوين الفكرى والأسلوب الفنى الكتابى على حسب ما رعى إليه . فمنها :

١ — القصص التى هى أحاديث عن العرب ، وسرد لسيرتهم وأخبارهم وما كان يحدث فى مجالسهم ومجتمعاتهم ، مما امتلأت به كتب الأدب العربى ، من صور العصر الجاهلى والعصور الإسلامية ، وما كان يجرى فى مجالس الخلفاء

والأمراء والمغنين ، فهذا النوع من الكلام لا يدخل في باب القصص الفنية التي وصفناها وإنما يدخل في باب الرواية والأحاديث .

٢ — الأسلوب القصصى الفنى الذى جاء إلى لغة العرب مما نقل إليها من الفارسية أو الهندية أو غيرها، ككيلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، وغيرهما مذكوره ابن النديم فى باب الأسماء والسير .

٣ — القصص التى كتبت على نمط القصص المترجمة، وحاكى فيها مؤلفوها أساليب التفكير الفارسية أو الهندية على السنة الحيوان والبهائم وغيرها مما أخذه الكتاب من تاريخ الفرس أو الهندود . قال ابن النديم فى كلامه على الكتب التى صنف فى الأسماء والخرافات « ... ابتداء أبو عبد الله محمد بن ابن عبدوس الجهمشيارى صاحب كتاب الوزراء، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسماء العرب والعجم والروم وغيرهم ... وأحضر السامري فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فى الأسماء والخرافات ما يطيب له (وكان فاضلا) فاجتمع له من ذلك أربعائة ليلة وثمانون ليلة وكل ليلة سمر تام ... وكان قبل محمد يعمل الأسماء والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم — جماعة، منهم عبد الله بن المفقع، وسهل بن هارون ، وعلى بن ابن داود . فهؤلاء جماعة من الكتاب كانوا يؤلفون فى القصص ويحكون الفرس وغيرهم فى الأساليب القصصية » .

٤ — ظهر بعد هؤلاء جماعة من الكتاب ألفوا فى تاريخ العرب وكبار رجالهم وفرسانهم وحروبهم — قصصا، ولكنها كانت دون تلك، من حيث صحة العبارة وحسن التأليف؛ لأنها خليط من اللغة الفصحى والعبارة العامية ونقل ما فى كتب الأدب المعروفة : من شعر ونثر ، ويظهر أن مؤلفيها رأوا مجارات العامة فى لهجاتهم، كما ترى ذلك فى قصة عنبرة وبكرو تغلب وسيف بن ذى يزن

وما يشبهها، ويظهر أيضا أن هذه القصص كتبت كلها أو جلها فى مصر كما أشرنا إلى ذلك .

٥ - القصص التى كتبها بعض علماء اللغة والأدب ، وهى قصص لغوية أدبية، وليست من السير أو الكتابة التى تمثل الأحوال الاجتماعية، مثل رسالة الغفران لأبى العلاء ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى .

٦ - القصص التى ذاعت فى العصور الأخيرة، وأخذت موضوعاتها من بعض الحوادث الغرامية ، وبعضها من قصص الأنبياء ، وبعضها من الأساطير والخرافات، وقد ذاعت هذه القصص فيما بعد القرن الرابع .

٧ - القصص الفنية اللغوية الصناعية المسماة بالمقامات .

أما مقامات الهمداني والحريري فهى على غير أسلوب تلك القصص العامة المملوءة بالأخطاء واللحن ، وليست شبيهة بها من حيث موضوعاتها ؛ لأن تلك الموضوعات إما فارسية أو هندية، أو عربية مقتبسة من تاريخ الفرسان والبطال فقد عبت بها الخيال ولعبت بها أهواء العامة .

والمقامات ليست على هذا الطراز، لأنها كتبت بعبارة عربية صحيحة، وأخذت حوادثها من مشاهدات الكتاب وأحوال الاجتماع والعصور التى كانوا يعيشون فيها، ولا شك فى أنه كان للحالة العقلية التى ذاع أمرها إبان القرن الثالث والرابع فى بلاد العراق وفارس وخراسان - أثر عظيم فى انتشار هذا الأسلوب، فقد كانت هناك نهضة علمية أدبية، أثارتها المناقشات بين الدول التى كانت تحكم إذ ذاك: كالدولة السامانية فى خراسان وتركستان، والبويهية فى فارس والعراق، والغزنوية فى أفغانستان وغيرها، فكان هذا سببا فى انتعاش الحياة الفارسية الأدبية التى قام بها هؤلاء لنشر لغتهم وآدابهم ، وفى زمن الهمداني والصاحب بن عباد والحوارزمي - علا نجم اللغة الفارسية ، وكان ملوك الدولة السامانية وغيرهم من ملوك الفرس يساعدون على ذلك ، فظهر جماعة من كبار شعراء الفرس .

وفي هذا الزمن نظمت الشاهنامة ، ونقلت بعض الكتب العربية إلى الفارسية ، ككتاب تاريخ الطبري الذي ترجم إلى لغة الفرس لمنصور الساماني وكان الشعراء ينظمون بالعربية ، والفارسية ويجيدون اللغتين ، وينقلون الشعر من الفارسية إلى العربية ، أو من العربية إلى الفارسية ، كما فعل بديع الزمان الهمداني في حضرة ابن العميد ، فقد كانت تمتحن مقدرتهم في الشعر بذلك . وقد نقل أبو الفضل أحمد السكري المرزوي كثيرا من الأمثال الفارسية إلى العربية ، كما ذكر الثعالبي ذلك في كتابه (يتيمة الدهر) كل هذا أوجد في اللغة العربية حالة لم تكن مروفة قبل ذلك ، وقد عاش بديع الزمان الهمداني في هذه البيئة ، وكتب مقاماته في نيسابور ، فظهر فيها أثر التفكير الفارسي ، وفي هذا العصر انتشر ذلك المذهب الكتابي المملوء بالصناعة والسجع والعمل والتكلف ، وكان هناك جماعة يمثلون هذا المذهب الجديد ، وعلى رأسهم ابن العميد والصاحب بن عباد وأبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني ، فنشأ بديع الزمان في هذه البيئة وكان يجيد الفارسية ، وتربى هذه التربية الممزوجة بالثقافة العربية والفارسية ، ومن هنا تمكنت من نفسه ملكة الكتابة القصصية فكتب مقاماته الشهيرة التي كانت نموذجا لهذا النوع من الكتابة القصصية ، ورغم أن بن دريد سبقه بأحاديث نشرها ، فهو أجدر بنسبة هذا الأسلوب إليه . أما موضوعات مقاماته فقد أخذها كإقليدس من أحوال الناس الذين كانوا يعيشون في عصره ، ثم من بعض أحواله الخاصة فقد رسم فيها صور بعض هؤلاء الناس ، ولا سيما الأدباء الفقراء الذين كانوا يسألون ويتكسبون من آدابهم ، وقد عالج موضوعات أخرى بعضها عقلية وبعضها لغوية ، ثم جاء الحريري واقتفى أثره ، بل حاكاه محاكاة تامة في الأسلوب والموضوعات ، وفاقه في كثير منها ، وأمعن في الصناعة اللفظية إمعانا ، وافتن في ذلك افتنانا . وجملة القول أن هذه المقامات اشتملت على بعض المسائل الاجتماعية وعلى وصف بعض النفوس ، ولكن لم يكن الغرض الأول منها الكتابة القصصية

الفنية، بل إظهار البراعة في أساليب الكتابة المسجعة وأنواع الشعر الصناعي، وتمييز الأسلوب، وهذا يدل على أن الفن القصصي كان في بدء نشأته، فكان يحتاج إلى زمن طويل، وإلى أساليب متعددة تكتب في مثل هذه الموضوعات، وإلى تطور وانتقال، حتى يصل إلى درجة النضوج، على أن هذا الأسلوب القصصي شاع في أواخر الدولة العباسية، وقت تمكن السجع وأنواع البديع من نفوس الكتاب فقدموا باتباع هذه الأساليب، ولو أنهم كانوا في عصر آخر، أو لو أن كتاب اللغة العربية من الأدباء استمروا في الكتابة على هذا النمط - لوجد في هذه القصص أسلوب سهل آخر، يكون نموذجاً للكتابة النثرية القصصية الفنية على أن أسلوب المقامات بقي متمشياً في جميع عصور اللغة، ولكنه بقي أيضاً أسلوباً صناعياً، ومهما يكن من أمر مقامات الهمذاني والحريري من حيث احتواؤها على بعض المسائل النفسية والاجتماعية، فهي تحسب قصصاً أدبية لغوية، لاشتمالها على كثير من غريب الصناعة اللفظية، أكثر من اعتبارها قصصاً اجتماعية.

ألف ليلة وليلة

هذا الكتاب هو أشهر الكتب القصصية في لغة العرب، بل ربما كان المثال الذي احتذاه كتاب القصص العربية منذ القرن الرابع الهجري، وساروا على نهجه حتى في القصص التي أخذوا موضوعاتها من تاريخ العرب، وجعلوا أبطالها من فرسان العرب ورؤسائهم. وقد كان لظهور هذا الكتاب باللغة العربية إبان القرن الثالث الهجري - كما يقول المؤرخون - شأن عظيم في عالم الأدب، لأنه لم يكن يعهد قبل ظهوره هذه الأحداث العجيبة، ولا هذه الصور التاريخية الغريبة في أدب من آداب الأمم، كما أن هذا الخيال الواسع في خلق الأساطير وقصصها لم يعرف في اللغة العربية قبل ظهور هذا الكتاب، وقد انتشرت هذه القصص في مصر زمن الفاطميين، فنشرت الأسلوب القصصي في الكتابة، وتولد من

قراءته في نفوس المصريين الميل إلى الكتابة القصصية، التي ظهر فيها أثر العقل المصري المملوء بالفكاهات والملح وأخبار الجن والعفاريت.

أصل الكتاب وآراء الباحثين فيه : عند ما ذاع أمره في أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر، أقبل على دراسته علماء الأدب، وترجم إلى لغات متعددة وكان المستشرقون أول من عني بدراسته، وأول بحث ظهر في ذلك كان للمستشرق الفرنسي الشهير (سلفستردى ساسي) في سنة ١٨١٧ م واستمر في بحثه إلى سنة ١٨٣٣ م فكتب عدة مقالات في أصل هذا الكتاب، وفقا أثره من غيره من المستشرقين.

وقد اختلفت آراء هؤلاء الباحثين في أصل هذا الكتاب، معتمدين في ذلك على رأى المسعودي في كتابه (مروج الذهب) في أثناء كلامه على (أرم ذات العباد) إذ قال (وسبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا، والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية، وسبيل تأليفها ما ذكرنا مثل كتاب (هزار إفسانة) وتفسير ذلك من (الفارسية إلى العربية) ألف خرافة . والخرافة بالفارسية يقال لها إفسانة، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتهما وهما شهرزاد ودينازاد، ومثل كتاب (مرز وشماس) وما فيها من أخبار ملوك الهند والوزراء، ومثل كتاب (السندباد) وغيرها من الكتب في هذا المعنى (١).

واعتمد الباحثون أيضا على عبارة ابن النديم التي قال فيها: (أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان - الفرس الأول، ثم أغرق في ذلك ملوك الأشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس، ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك السلسانية، ونقلته العرب إلى اللغة العربية، وتناولته العلماء والبلغاء فهدبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه

(١) مروج الذهب - ص ٩٠ طبع باريس

وأول كتاب عمل فى هذا المعنى كتاب (هزار إفسانه)^(١)

قالوا وكان السبب فى وضعه ، أن أحد ملوك الفرس كان يتزوج كل يوم بفتاة، فإذا طلع عليها فجر اليوم التالى، قتلها وتزوج من غيرها، وفعل بالثانية مثل ما فعل بالتي قبلها، ثم تزوج أخرى وهكذا ... إلى أن ضجر سكان المدينة منه وضجوا من عمله، فوهبت له نفسها بنت أ كبروزرائه، وكانت ذات عقل وحكمة تسمى (شهر زاد) فلما كانت معه، أخذت تحذثه أحاديث خرافية ملكت عقله فى أول ليلة لم تتم حديثها، بل أبقت له بقية اشتاق الملك إليها، فأبقى على محدثته إلى الليلة التالية حتى تتم حديثها، فلما جاءت الليلة الثالثة أبقت له بقية أيضا فتركها الملك لتتم حديثها، وما زالت كذلك فى كل ليلة والملك يصغى إلى حديثها ويتشوق إلى بقيته حتى نسي عادته الممقوتة، وبذلك أنقذت بنت الوزير فتيات بلدها من يد هذا الطاغية، وكانت أتمت حديثها فى ألف ليلة وليلة .

ولكن هذه الآراء لا تدعو إلى الجزم بصحتها، لأنها روايات لا يعتمد قائلوها على برهان قاطع، ولهذا اختلف الباحثون فى ذلك، فقال بعضهم إن أصله فارسى، وقال آخرون بل أصله هندى ، وآخرون قالوا : إنه خليط من حكايات فارسية وهندية، بل رأى بعض الباحثين أنه كتب زمن العباسيين، على أثر انتشار أخبار الفرس وحكاياتهم على السنة العامة ، ثم زيدت عليه قصص أخرى فى أماكن وأزمان مختلفة ، وقد بلغ الاضطراب فى روايات هؤلاء الباحثين أن نفى بعضهم كل أثر فارسى أو هندى فى هذه القصص ، وخطأ السعودى فى روايته وأيد رأى المسعودى عالم ألماني مستشرق، وقال العالم الأنجليزى (لين) إن الكتاب كتب بقلم واحد بين سنة ١٤٧٥ - سنة ١٥٢٥ م، وقسم أحد علماء الألمان (مولر) الكتاب أقساما : قسما منه كتب فى بغداد ، والقسم الأكبر كتب فى مصر ، وبعضهم قسم الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول يشتمل

(١) فهرس ابن النديم، من ص ١٠٤

على القصص التي نقلت من الأصل الفارسي (هزار إفسانة) والقسم الثاني قصص كتبت في بغداد ، والقسم الثالث قصص كتبت في مصر ، وأضيفت إلى الكتاب وضمت إليه حكايات مثل حكاية الملك عمر بن النعمان وأبيه .

وجاء بعد هؤلاء المستشرق البلجيكي (شوقان) وقال إن القصص التي كتبت في مصر ، كتب قسما منها كتاب من اليهود . وأرجح هذه الأقوال على ما يظهر — هو أن الأصل الأصيل لهذا الكتاب هو القصص الفارسي الذي ترجم إلى اللغة العربية في القرن الثالث الهجري المستمد أكثره من أصل هندي ، فإنه بمقارنة ألف ليلة وليلة العربية بالكتاب الأصلي ، يرى أن هذه القصص العربية هي بعينها تلك القصص الأصلية ، مع تغيير ضئيل اقتضته الترجمة أو أن ما حصل من التغيير هو في بعض الصور والأسماء القديمة ، التي استبدل بها غيرها من الصور والأسماء العربية ، ففي النسخة العربية أسماء فارسية مثل (شهر زاد) و (شاه زمان) وحكايات تشبه ما في القصص الهندية في أسلوبها وموضوعاتها مثل حكاية التاجر العارف بلغة الحيوان ، ومثل تسلسل الحكايات ودخول بعضها في بعض آخر ، وطريقة ذكر القصة لإلهاء السامع والوصول إلى غرض معين ، هي طريقة الحكايات الهندية . وهناك بعض قصص هندية محضة ، مثل قصة الوزراء السبع ، ومثل قصة التاجر والجني ، والصائد والجني ، وفي الكتاب عبارات هندية مثل العبارات الآتية (يلزمك ألا تفعل هذا حتى لا يحصل لك مثل ما حصل لفلان) وكالعبارة المكررة كثيرا ، وهي سؤال رجل لآخر (وكيف ذلك) فهذه العبارات نفسها في الترجمة العربية وهي تشبه ما في القصص الهندية المنتشرة في أيدي العامة . كما أن هناك قصصا مأخوذة من الفارسية والأمثلة على تلك معروفة . فهذا دليل على أن الكتاب مأخوذ من أصل فارسي وهندي ، زيدت عليه حكايات أخرى وصور أخرى من الحياة العربية الإسلامية

أقسام قصص ألف ليلة وليلة ومجراتها : .

إنه برغم التشابه الذى قد يكون بين هذا الكتاب وأصله الفارسى، لا بد أن يكون قد أدركه كثير من التغير والتبديل . وتفصيل الكلام فى ذلك قد يخرج بالباحث عن الحقائق إلى الظن والتخمين ، ولكن يمكن أن يقال على وجه الإجمال على حسب آراء الباحثين : إن القصص التى ترسم حياة الأسر النبيلة أو الأسر المثرية أو الطبقة المتوسطة ، أو القصص التى بها الحوادث الغرامية، والتى يذكر فيها أسماء الخلفاء ، كهارون الرشيد — هى من القصص التى كتبت فى بغداد .

والقصص التى تكثر فيها الفكاهات والنكت البلدية ويذكر فيها الجن والعفاريت وبعض الآراء المألوفة لنا فى مصر، وصور الحياة المصرية ، وذكر المدن المصرية — هى قصص مصرية . على أنه قد يجد القارىء ذكر الجن فى القصص التى ترجمت عن الهندية، ولكنه لا يجد فيها ما فى القصص المصرية من اتصال هذه العفاريت بالسحر وما يشبهه وقد يكون فى القصص المصرية شىء من المجون، ويقول بعض الباحثين: إن هذا النوع من القصص المصرية التى يكثر فيها ذكر العفاريت والمجون ، كتبت بأقلام الإسرائيليين الذين أسلموا واستدل على ذلك بما فيها من الأسماء العبرية كما سيأتى فى الكلام على القصص الإسرائيلية .

لقد تبين من ذلك أن الباحثين جعلوا قصص ألف ليلة وليلة ثلاثة أنواع قصصاً فارسية هندية، وقصصاً كتبت فى بغداد وقصصاً كتبت فى مصر، وقد عرفنا القصص الفارسية الهندية ومجمل أوصافها، وأن القصص التى كتبت فى بغداد وهى ما يذكر فيها صفة أهل بغداد، ووصف الحياة هناك فى القرن الثانى الهجرى وذكر هارون الرشيد، وغير ذلك مما يمثل الحياة الإسلامية إذ ذاك .

أما القصص التى كتبت فى مصر فهى قسمان : ما كتبه مسلمون وما كتبه إسرائيليون؛ ولكل مميزات تجعلها إجمالاً فيما يأتى :

القصص المصرية ومميزاتها :

لقد يجد القارئ المصري لبعض قصص ألف ليلة وليلة - تشابها بينها وبين ما هو مألوف من أسلوب أحاديث العامة أو الخاصة، وما هو معهود من أخلاق وعادات مصرية، سواء أكان ذلك في الأحوال الاجتماعية أو النفسية. ولقد تكون هذه القصص مكتوبة بأسلوب عربي مصري، أو لهجة مصرية، وهذا ما يحمل على التصديق بأن هذا الكتاب قد احتوى على قصص مصرية كتبت في مصر، وبأقلام كتاب مصريين، وتتميز هذه القصص بصفات: منها أن موضوعاتها ليست خيالية بحتة بل مأخوذة من الحياة العامة المصرية، وأن ليس الغرض منها جذب القراء إليها بما فيها من الغرائب والعجائب التي لا يصدقها إنسان عاقل، كما في القصص الفارسية أو الهندية المملوءة بالأساطير والخرافات. ومنها أن الكاتب يعتمد فيها على ما في نفسه من أثر الحوادث التي شاهدها في حياته، ورسم الأشخاص الذين عرفهم ورآهم وأنه إذا وجد شيء من الأساطير فإنه يكون بقدر الحاجة. ومن صفات هذه القصص أن الأشخاص الذين فيها هم جميعاً، ممن يعيشون بكدهم، ولا تكاد نجد بينهم من ساعدهم الحظ فأصبحوا من الأغنياء، أو نكبتهم الأيام فصاروا من الأشقياء، لأنهم يعتمدون على المصادفات؛ لهذا نجد الكاتب المصري كثيراً ما يتكلم عن الصناعات، ويذكر رجلاً من التجار يتكلم عن تجارتهم وسلعهم كما في قصة الأحدث، وكما في الكلام على «أبو قير ومصبغته» «وأبو صير وحماته» وغير ذلك. ومن هذه القصص قصة معروف الإسكافي المشهورة. وبمناسبة ذلك قال بعض الباحثين إن غير القصص المصرية مملوءة بالخيال والمبالغة والأثرة أو حب النفس، وإنها عبارة عن حلم شعب خامل يود أن يعثر في إثراء فسحة على المعادن والجواهر ليصبح من الأغنياء. ومن صفات القصص المصرية أن شخصية الكاتب فيها ظاهرة تمثل نفسه، وكأنه يدرس موضوعاً شاهده فهو يتوسع في شرحه؛ ومنها

أن أكثر هذه القصص قصيرة، وأن الصبغة المصرية ظاهرة فيها، من الفكاهة والنقد الحلو وخفة الروح. ومن أعظم مميزاتها أن كاتبها عارف بالافتتان والأساليب القصصية، عالم بكيفية سرد الحوادث وقصها، مما لا يوجد في غيرها من القصص، كما لاحظ ذلك الباحثة الألمانية (كرامر) وكما يرى في قصة معروف الاسكافي، وعلى الجوهري، وقصة التاجر على المصري، والتاجر حسن الجوهري، وقد لاحظ الباحثون أن القصص المصرية كثيرا ما تتشابه في الحوادث والموضوعات، ووجدوا أن في بعضها إطراء للرأفة المصرية، كما في الكلام على قمر الزمان. وهناك مميزات أخرى تظهر للقارىء في أثناء قراءته، فيشعر بأنها كتبت بأقلام مصريين وعقول مصرية.

القصص الإسرائيلية المصرية ومميزاتها

تمتاز القصص الإسرائيلية المصرية التي كتبها إسرائيليون مصريون - قد يكون بعضهم اعتنق الإسلام - بأشياء منها: ذكر الأسماء والأماكن العبرية كسليمان وداود وآدم وبيت المقدس، وذكر المسائل التاريخية العبرية كوصف الأرض وارتكازها مما أخذ عن كلام وهب بن منبه، وكحاربة العقاريت بعضها بعضا وتحول إنسان إلى رماد، وكحكاية الشرير الذى اختطف رجلا وطار في الهواء فأصابته ضربة من حربة ملتهبة أرسلت إليه من الملائكة، وكالقصة التي ذكر فيها أن أعرايا زار هاروت وماروت، اللذين كانا مسجونين في بئر في بابل، فلما رأى طولها العظيم العجيب فزع من هذا المنظر، فذكر الله تعالى، فانطوى جسمهما وصار على شكل مربع وكان يرافق العربى في هذه الزيارة يهودى. وقد رأى بعض الباحثين أن الغرض من أمثال هذه الحكايات التهمك بالمسلمين.

ومن أشهر الحكايات الإسرائيلية حكاية (بلوقيا) المذكورة ضمن قصة حاسب كريم الدين بن دنيال الحكيم، إذ يظهر أن كاتبها وقف على قسط

وافر من الأساطير الإسرائيلية، كذكر الحياة وأثرها، والسعي في الحصول على خاتم سليمان، وذكر الغرائب والعجائب، فمن أمثال ذلك: أن الله خلق جبلا قدره مسيرة خمسمائة عام، وهو من الثلج والبرد، وهو الذي رد حر جهنم عن الدنيا، ولولا ذلك الجبل لاحتقرت الدنيا من حر جهنم، وأن الأرض سبع طبقات يحملها ملك، وتحت الملك صخرة، وتحت الصخرة ثور، وتحت الثور حوت والحوت في بحر تحته هواء، وتحت الهواء نار، وتحت النار حية عظيمة، ولولا خوف الحية من الله تعالى لا ابتلعت جميع ما فوقها، وأن الجنة فتحت فها فأدخلت جهنم في بطنها، وقيل لها احفظي جهنم إلى يوم القيامة، فإذا جاء يوم القيامة أمر الله الملائكة أن يأتوا معهم بسلاسل يقودون بها جهنم إلى المحشر (راجع القصه في الجزء الثالث من ألف ليلة وليلة صفحة ٢٠٠ من طبعة بيروت).

ومن أساطير هذه القصص الإسرائيلية، أنه لما توفي سليمان عليه السلام وضعوه في تابوت وعدوا به سبعين بحرا، وكان الخاتم في أصبعه، ولا يقدر أحد من الإنس ولا من الجن أن يأخذ هذا الخاتم... وأنه وجد في بعض الكتب أن بين الأعشاب عشبا كل من أخذ منه شيئا وعصره وأخذ ماءه ودهن به قدميه فإنه يمشى على أي بحر خلقه الله تعالى ولا تبطل قدماه، ولا يقدر أن يحصل إنسان على هذا العشب إلا إذا كانت منه ملكة الحيات... وكثير من مثل هذه الأساطير الإسرائيلية، ومن الأدلة على أنها إسرائيلية، وأن كاتبها إسرائيلي مصري— أنه جاء في هذه القصه أن (بلوقيا) عند ما دخل بيت المقدس كان يقرأ في التوراة، وقد سئل عن اسمه فقال بلوقيا، وأنه من مدينة مصر. هذا في جملة وصف القصص الإسرائيلية المصرية، المملوءة بالأساطير الإسرائيلية الممزوجة ببعض الصفات المصرية، مما يدل على أن كاتبها أسرائيليون مصريون، أسلموا أولم يسلموا؟